أيمن ذو الغنى* - سورية

بوح قلب عاشق

(من رسائله إليها)

كتبَتْ إليه تبثُّه سعادتها واغتباطها برسالة منه إليها. وكان مما حبّرته في مطلع رسالتها:

«أقسم إنك لفنانٌ بارع. فلقد رسمتَ ابتسامةً على شفتيّ بريشة قلمك المبدع. ورسمتَ عَبرةً مُتلألئةً في عينيّ ذرفتُها عندما قرأتُ كلمات ليست كالكلمات...».

وأطربتهُ رسالتُها. وأسكرتهُ عباراتُها. فخطّت يراعتُه إليها هذه الكلمات:

الله الله الله!!

ما هذا يا فلانة؟!

أنثرٌ ما كتبت أم شعر؟!

لم أعُد أدري والله مَن الفنّان فينا، أنا أم أنت؟!

لقد قرأتُ كلماتك الخضرَ مرات ومرات، ثم قرأتُها مرات ومرات.. لم أقرأها بعينَي رأسي، بل بعينَي قلبي وفؤادي..

قرأتُها وعانقتُها وأشبعتُها ضمًا ولثمًا وتقبيلا.. وتذوّقتُ كلّ حرف من حُروفها.. فأين منها العسلُ وحَلوَياتُ الدنيا!

واستنشيتُ منها عبيرًا لا كالعبير، وأريجًا دونه كلُّ أريج.. فدَع عنك الجوريّ والنرجس والياسَمين!

أوَ بهذه السرعة ترتَقين.. وتتقدّمين.. وتُحلّقين؟!

لقد بتُّ أخشى على نفسي ألا ترتقيَ إلى ما ارتقيت.. وأن أعجزَ عن اللحاق بفراشَتي الغالية الجميلة، وهي تحلّق بعيدًا بعيدًا إلى آفاق الفنّ والأدب، والإبداع والتميُّز..

رويدًا أيتها العَبقَة.. رويدًا أيتها العَذبة..

فإن جناحيّ لا يقوَيان على التحليق..

خُذي بيدي إلى دُنياك.. إلى عالمك وذُراك.. ولا تدَعيني أبعُد عنك.. أو أقصّر دونك..

خذي بيدَي مهجتي التي غزوتها بجيوشك.. واستوليت عليها بنفوذك!

أوَليست الرّقةُ أمضى من ألف مُقاتل؟!

أوليسَ الجمالُ أفتكَ من ألف فارس؟!

ماذا أكتبُ لك يا فلانة.. ماذا أقولُ لك أيتها الريحانةُ الفوّاحة.. ماذا أكتبُ وماذا أقول؟!

كلما قلّبتُ ناظريّ في كلماتك وجدتُني عاجزًا أن أخُطّ لك ما أعبّر به عن قليل مما جيّشته في نفسي.. عن قليل مما أثارَته في رأسي.. عن قليلٍ مما أفاضَته في روحي!

لقد سدّت عليّ كلماتُك منافذَ القول!

وألجمَتني بلجام من الضعف والعجز مُحكَم!!

فأنّى لي أن أقول؟! وهيهاتَ أن أحسنَ التعبير!!

ليتَني كنتُ شاعرًا أو نصفَ شاعر..

إذن لصُغتُ لك من القوافي حُللاً..
ومن القصائد عُقودَ ماس تحلّين بها جيدَك التي لا تنتظرُ التزيين!
أعترفُ بين يدَيك أني عجَزت.. وأن المعانيَ تتأبّى عليّ، وتُفلت مني، وتفرُّ عني!!
فاقبَلي يا حُلوتي مني اعتذاري.. وسامحيني على تقصيري وضعف اصطباري..
فأنا الآنَ سكرانُ سكران.. أسكرتني عذوبةُ كلماتك، وجمالُ بيانك، وحسنُ صوغك، وبديعُ رصفك.. فدعيني غائبًا في سُكري..
وإلى أن أصحوَ من سَكرتي وذهولي.. تقبّلي مني خالصَ ودّي، وعظيمَ حبّي!
أيتها الأديبة الفتّانة!
وشاء الله أن يرتحل عن ديارها. وأن ينأى بجسده عنها..
وفي أول عيد أرسلت إليه طاقةً من الورد الجوريّ الأحمر.. فاستنشت روحُه أرجَها. وفاضت نفسُه بمشاعر شوق وحنين. فأرسلَ إليها طاقات من أصناف شتّى. وندّاها بهذه الكلمات:
أي فلانة اللطيفة..
سلامُ الله عليك ورحمةٌ منه وبركات..
سعدتُ كلّ السعادة بهديتك الجميلة العطرَة..
وكيف لا تكون كذلك وقد كسوتها من جمالك رونقًا وبهاء..
ومن رقّتك عذوبةً ونقاء..
ومن عَبَقك شذًا وعبيرًا..
سلمت يداك يا أميرةَ الورود..
ويا زنبقةَ الأميرات..
صدّقيني أيتها الغالية.. إنني ما زلتُ أعاني أسرَ عينيك.. أحاول أن أتخفّف -ولو شيئًا يسيرًا- من قيود عذوبتك وروعتك.. ولكنني أخفق وأخفق!
ماذا فعلت بي يا فلانة؟!
لقد صرتُ أنكر نفسي ولا أعرف.. أأنا أنا، أم أنني لستُ أنا!!؟
أحاول أن أشغلَ نفسي وأتشاغلَ بأعبائي الكثيرة.. فأجدُ كلّ شيء يذكّرني بك..
يذكرني الفجرُ بصفاء سريرتك..
وبزوغُ الشمس بإشراق طلعتك..
وتغريدُ الطيور بعذوبة كلماتك..
وسكونُ الليل بأنس حضورك..
أجل يا غاليتي! إنني لأجد صورتك تُطلّ عليّ من كلّ أفق أرنو إليه..
وأطيافُ روحك الرائقة المرحة تحلّق حولي كفراشات الربيع النديّة..
عجيبةٌ أنتِ يا فلانة.. عجيبة حقًا يا فلانة!
أي قوّة فاعلة أودعها الله فيك؟! أي سحر طاغ أكنّهُ الله في مُقلتيك؟!
أإنسيّة أنت يا فتاتي أم حُورية من حوريات الجنان؟!
ارحميني يا فلانة.. ارحمي قلبيَ الضعيف.. ارحمي روحيَ الغضّة..
فإنها روحُ أديب.. وما أدراك ما روحُ الأديب؟!
والله إنني لأخطُّ لك هذه الكلمات، وعيناي تفيضان بالعَبَرات.. ومُهجتي تئنُّ بالآهات..
شوقًا إلى عَينيك.. شوقًا إلى وَجنتَيك..
شوقًا إلى لقائك..
أيتها الغائبةُ الحاضرة، أيتها البعيدةُ القريبة، أيتها النائيةُ الدانية..
لقد كان القربُ منك.. والغوصُ في لجج مُقلتيك.. نارًا أضرمَت في الفؤاد!
وظننتُ البُعدَ يَشفي ويُبرئ.. فإذا به أشدُّ وطأةً.. وأشدُّ قسوةً.. وأشدُّ إيلامًا!!
«حَسبتُ النوى والتناسي شفاءً
وسَلوى منَ الوَجد والصَبوَة
فإني لأحلُمُ ليلَ نهارَ
برؤية طلعتك الحلوَة
وصَوتُك ما انفكّ في خاطري
وطَيفُك ما زالَ في مُهجَتي
ولم تَنطفئ جَذوَةُ الذكريات
على البُعد قَطُّ، بل ازدادَت
سَلامٌ على هاتك الذكريات
تَوارَت كحُلم بلا عَودَة!
فهَل من رُجوع لتلك الليالي
ورَوعَةُ أيّامها العَذبَة؟!»[1]
أما الختامُ فقد آثرتُ أن يكونَ من جنس ما أهديت..
فإليك يا عنوانَ الجمال.. إليك يا عنوانَ الكمال.. إليك أيتها الفاتنةُ الفتّانة هذه الطاقاتِ من الزهور..■

الهوامش:
(●) عضو رابطة الأدب الإسلامي العالميّة. المستشار الثقافي بموقع الألوكة الإلكتروني.
(١) من ديوان قطوف وظلال. الشاعر السوري الأستاذ عمر الشعبي.